شرارة آذار
دعوة للتفكير بصوت مرتفع
مجلة فكرية ـ فصلية
جدل
دعوة للتفكير بصوت مرتفع
تصدر عن مركز رؤيا الإعلامي
العدد ٩٩ ٥/١-١١/١/٢٠١٤
للمراسلة: infoshrara@gmail.com

ما يتوجب على المعارضة فعله في جنيف

فردريك س. هوف
ترجمة: أحفاد الكواكبي

إذا قدمت المعارضة السورية لمؤتمر جنيف الثاني المحدد عقده في ٢٢ يناير ٢٠١٤ اقتراحاً معقولاً عن حكومة انتقالية بديلة عن نظام الأسد، يمكن عندها أن يساهم المؤتمر في إنهاء حكم العائلة الفاشية الوحشية لسورية.

إذا قدمت المعارضة السورية لمؤتمر جنيف الثاني المحدد عقده في ٢٢ يناير ٢٠١٤ اقتراحاً معقولاً عن حكومة انتقالية بديلة عن نظام الأسد، يمكن عندها أن يساهم المؤتمر في إنهاء حكم العائلة الفاشية الوحشية لسورية.

وإن تقدمت المعارضة بلائحة وحدة وطنية تتضمن أسماء بارزه تتضمن علويين خدموا بكفاءة وإخلاص في مراتب مدنية وعسكرية عالية، لربما تطلق بذلك تفكيكاً سريعاً لنظام دمّر سورية ولم يجلب سوى المآسي والأحزان والآلام لكل السوريين، بما فيهم المجموعة التي ينحدر منها.

حالياً يمتطي نظام الأسد الميليشيات المشكلة والمدعومة من قبل إيران إلى سلسلة من الانتصارات التكتيكية شمالي دمشق. فقد تكبدت القوات السورية الموالية للنظام –والتي تتكون غالبيتها من العلويين– خسائر فادحة خلال العامين الماضيين، وأنهكت بعض وحداتها.

وتحتاج طهران إلى عشيرة الأسد-مخلوف للحفاظ على خيار ردع استراتيجي في لبنان ضد إسرائيل (حزب الله).

ولكن ضمن صفوف الطائفة العلوية هناك تساؤلات مكروبة عن حجم التضحيات التي قدمتها وعن المعاناة التي لا تزال تطلب منها للحفاظ على العائلة الحاكمة وموظفيها.

إن عدم وجود بديل جذّاب وذي مصداقية هو كل ما يربط هذا المجتمع (وبعض الأقليات الأخرى) بالنظام.

وفي جنيف يمكن للمعارضة السورية أن تخفف وطأة تلك القيود. فهل ستفعل ذلك؟

ليست هناك أرضية للتفاؤل. الائتلاف الوطني السوري يمتلك جذوراً في الداخل هي ضحلة في أحسن الأحول، وقد سُمّي هذا الائتلاف ممثلاً شرعيا للشعب السوري، ويعتبر من قبل أولئك الذين يدعون أنفسهم أصدقاء الشعب السوري قائداً مركزياً للوفد السوري إلى جنيف، دون أن يتلقى الدعم الذي يحتاجه لإقامة بديل للحكومة داخل سورية.

و يمكن تفهم أن الائتلاف، وبحساسيته لاتهامات بعدم الجدوى والتقصير والخلل وعدم احترامه من قبل الغرب، غيرراغب في المخاطرة بطرح قائمة حكومة انتقالية قد تثير غضب الناشطين داخل سورية والذين تحملوا العبء الأكبر من وحشية النظام.

التتمة صفحة . . ٢ . .

حلب: جيش المجاهدين.. موعد مع الصحوة

محمد الخطيب

في ظلّ التحالفات العسكرية وتباينات المواقف التي تشهدها المعارضة المسلحة في سوريا، إضافة إلى التقهقر الذي تشهده جبهات حلب وحالة المد والجزر بين الفصائل المسلحة وقوات النظام، أعلنت كتائب وفصائل عسكرية معارضة في حلب مساء الخميس عن تشكيل تحالف عسكري جديد، يضم عدداً من أبرز التشكيلات المقاتلة في حلب وريفها الغربي، وذلك تحت مسمى "جيش المجاهدين".

التحالف الجديد يضم ثمانية فصائل تعمل في محافظة حلب، أبرزها تجمع ألوية "فاستقم كما أمرت" وهي مجموعة من الكتائب تنتشر في الجزء الغربي من مدينة حلب، إضافةً إلى كتائب "نور الدين الزنكي الإسلامية" المتواجدة في الريف الغربي لحلب والتي كان لها دور بارز في معركة خان العسل. كما يضم فصائل أخرى مثل حركة النور الإسلامية ولواء الأنصار ولواء أمجاد الإسلام. وتغلب الصفة "الإسلامية المعتدلة" على معظم الفصائل المنضوية تحت التشكيل الجديد، والذي أصبح القوة العسكرية الأكبر في حلب بعد "الجبهة الإسلامية".

يأتي الإعلان عن تشكيل "جيش المجاهدين"، بعد احتقان شهدته بلدة "الأتارب" في ريف حلب الغربي، بين الكتائب والفصائل المعارضة في البلدة من جهة و"الدولة الإسلامية في العراق والشام" من جهة أخرى، وكذلك بعد اختطاف قائد لواء "شهداء الأتارب" ومعه قائد كتيبة "أحرار الأتارب" والعثور على جثة (علي عبيد) قائد أحدى مجموعات الجيش الحر، بالقرب من البلدة.

في صبيحة اليوم التالي لإعلان تشكيل "جيش المجاهدين"، انفجر الوضع تماماً بعد صبر طويل لهذه الفصائل على ممارسات "الدولة الإسلامية"، إذ تمكنت من طرد مقاتلي التنظيم من بلدة "الأتارب" وأسرت ١٥ عنصراً منهم، بينهم أمير التنظيم في الأتارب، إضافة إلى السيطرة على مناطق عديدة في ريف حلب الغربي، بالتزامن مع اندلاع اشتباكات في مناطق أخرى من حلب وريف إدلب.

التصعيد بدا واضحاً أو على الأرجح كان هو الهدف بعد الإعلان عن التشكيل، إذ اتهم "جيش المجاهدين" في أول بيان له "الدولة الإسلامية" باستغلالها "انشغال المجاهدين الصادقين على جبهات القتال" من أجل "الإفساد في الأرض ونشر الفتن وزعزعة الأمن والاستقرار في المناطق المحررة".

كما اتهمها بسرقة المعامل وسيارات المدنيين وأرزاقهم بحجج "تافهة" وخطف القادة العسكريين والإعلاميين وقتلهم وتعذيبهم ورفضهم "الاحتكام لشرع الله"، معلناً البدء في قتال "الدولة" حتى تعلن "حلّ نفسها والانخراط في صفوف التشكيلات العسكرية الأخرى" أو" تركهم أسلحتهم والخروج من سوريا".

التتمة في الصفحة . . ٢ . . .

تتمة: جيش المجاهدين.. موعد مع الصحوة

محمد الخطيب

يقول القياديُ في "جيش المجاهدين" طلب عدم الكشف عن اسمه أو الفصيل الذي يتبع له، إن الهدف من تشكيل جيش المجاهدين في الوقت الحالي هو "وضع حد لتدهور الأوضاع الذي وصل له الحراك العسكري في حلب"، مضيفاً أن أول عملية عسكرية له ستكون "تحرير حلب وباقي محافظات سوريا من تنظيم "الدولة الإسلامية" الذي اعتدى على الحرمات، وقام بفتح معارك مع الجيش الحر بدلاً عن محاربة النظام".

ليست "الدولة" هي وحدها السبب في تراجع العمل العسكري في حلب، إذ أن هناك العديد من الفصائل امتهنت ما يطلق عليه في حلب وسوريا عموماً "التشويل"، أي السطو المسلح، وفي هذا الخصوص أوضح القيادي قائلاً إنه "ستتم محاسبة جميع الفصائل المسيئة للثوار".

وعن مسألة المحاكم الشرعية التي امتلأت بها حلب، قال القيادي إنه سيجري العمل على تنظيم المحاكم من جديد، بالاشتراك مع الفصائل العسكرية الأخرى.

التوقعات عن تبعية "جيش المجاهدين" رجحت أن تكون لهيئة أركان الجيش السوري الحر، ولا سيّما أنه لم ينضم مثلاً لـ"الجبهة الإسلامية". ينفي القيادي أن تكون هناك علاقة بين "جيش المجاهدين" وهيئة الأركان في الوقت الحالي، ملمحاً إلى أنه يجري العمل مع فصائل أخرى، لتشكيل جسم عسكري موحد في سوريا وبقيادة واحدة.

وإضافة إلى التوقعات برزت تساؤلات عديدة، أكثرها إلحاحاً كان ما هو السبب وراء عدم انضمام التشكيل إلى الجبهة الإسلامية التي تعد قوة كبرى في حلب. وفي هذا الخصوص يذهب مراقبون للوضع في حلب للقول إن خلافاً، على ما يبدو، في وجهات النظر بين "جيش المجاهدين" و"الجبهة الإسلامية" منع الفصائل المنضوية تحت "جيش المجاهدين" من الانضمام إلى "الجبهة الإسلامية".

وتذهب آراء أخرى إلى أن عدم قيام "الجبهة الإسلامية" بالحسم في ما يخص موضوع "الدولة الإسلامية" هو سبب كاف لعدم انضمام فصائل التشكيل الجديد إلى "الجبهة" التي يؤخذ عليها تصرفها بحذر مع تلك الخلافات "حقناً للدماء" كما كانت الحجة دوماً وفي أحيان كثيرة كانت تحاول التوصل إلى المصالحة مع "الدولة الإسلامية".

ويظهر هذا الخلاف في وجهات النظر من خلال بيان "جيش الموحدين" الحاسم وما لحقه من بيانات لتشكيلات أخرى أبرزها كان "جبهة ثوار سوريا"، الذي قال المتحدث باسمها في تصريحات إعلامية إنهم تنسق مع "جيش المجاهدين" لمحاربة "الدولة الإسلامية" التي وصفها "بالخنجر في خاصرة الثورة السورية".

إذاً تبدو حلب على موعد مع أحداث كثيرة هذا العام، لن يكون التصعيد ضد "الدولة الإسلامية" سوى أولى بوادرها، فهناك جولة للنظام حتماً، كما أن الحادثة الأخيرة والصحوة ضد "الدولة" قد تعيد خلط الأوراق على الصعيد السياسي.

تتمة: ما يتوجب على المعارضة فعله في جنيف

فردريك س. هوف
ترجمة: أحفاد الكواكبي

و كمثله من الأحزاب السياسية في كل مكان، يجب أن يهتم الائتلاف بقاعدته، ولكن للأسف ولأسباب ليست كلها من صنع يديه لا يتمتع الائتلاف الوطني السوري بأية قاعدة شعبية.

وقد أبرزت الأحداث الأخيرة مدى تهميش التيار الوطني السوري الجدير بالاحترام في المعارضة، ويشهد بذلك قيام الولايات المتحدة بتعليق المساعدات غير الفتاكة للجيش السوري الحر، فهناك مقاتلون تابعون لجبهة إسلامية، وهذه تشكلت مؤخراً من مجموعات إسلامية معارضة لنظام الأسد وغير مرتبطة بتنظيم القاعدة، كانوا قد سيطروا على بعض المعدّات غير الفتاكة التي زودت بها الولايات المتحدة الجيش السوري الحر، وهذا يعني أن أفراد الجبهة الإسلامية يتناولون الآن وجبات طعام جاهزة ويتواصلون مع بعضهم البعض باستخدام معدات دفع ثمنها دافعو الضرائب في الولايات المتحدة.

كما أن اللواء القدير سليم إدريس، والذي أرادت الولايات المتحدة أن يمر عبره كل الدعم من أسلحة ومعدات للمعارضة السورية المسلحة، شهد القوات التي كان يأمل بقيادتها تغادر الجيش الحر إلى التشكيلات الإسلامية التي يغدق عليها داعموها الأسلحة والذخيرة والمال والطعام والمعدات الطبية وأجهزة الراديو والشاحنات الصغيرة.

لقد انتهى عملياً المجلس العسكري التابع للائتلاف، ولم يعد هناك دور فعلي للوحدات المختلفة من الجيش السوري الحر المرتبطة بشكل فضفاض مع ذلك المجلس.

في جوهره، يعني هذا الوضع أن إدارة أوباما قد تميل الآن للتخلي عن تظاهرها الأخرق بدعم المجلس العسكري الأعلى، هذا الدعم الذي لم يرقَ إلى أية درجة مهمة، على الرغم من النوايا الحسنة لوزير الخارجية جون كيري ومن العمل الشاق لبعض عناصر الولايات المتحدة. وحتى إن رأت الإدارة الأمريكية الآن أن استمرار نظام الأسد وصعود الإسلاميين في المعارضة المسلحة هي تطورات تهدد الاستقرار الإقليمي، وبالتالي مصالح الولايات المتحدة، فإن كياناً خضع لتجويع تدريجي حتى الموت –ولكن مع جرعات دورية إنقاذية غير فعالة– سيكون إحياؤه تحدياً عملياتياً من المرتبة الأولى، وربما يكون هذا جهداً جيداً يستحق الأخذ به ولو كان السبب الوحيد ضعف التأييد الشعبي لأشكال الإسلام السياسي الواقعة خارج نطاق الإخوان المسلمين.

ولكن القيام بما كان ينبغي القيام به عام ٢٠١٢ أصعب بكثير الآن عام ٢٠١٣. ويأتي كل ذلك على حساب الفئات الضعيفة من السكان في سورية.

لن تأرق إدارة أوباما لتهميش العناصر المسلحة التي دعمتها، بشكل غير فعال على أي حال. ولكن ما الذي يجب القيام به حيال جنيف؟ منذ أيار ٢٠١٣، كانت الولايات المتحدة هي القوة الدافعة لعقد جنيف٢؛ وقد تسارع دفعها في أعقاب اتفاق الأسلحة الكيميائية، الذي أعطى نظام الأسد ومؤيديه الخارجيين يداً حرة تفعل ما تريد بالمدنيين السوريين، طالما أنها لن تستخدم السلاح الكيميائي. بالطبع تعترض الإدارة الأمريكية على هذا التوصيف.

ولكن أين أختفى التهديد الحقيقي بالقوة العسكرية الذي وعدت الإدارة الأميركية بإبقائه خلال عملية نزع السلاح الكيميائي؟ من وجهة النظر الأمريكية الرسمية، جنيف هو المكان الذي سيتم فيه تفعيل الانتقال السياسي في سورية، من حكم العائلة الفاسدة الوحشية إلى شيء أفضل؛ وبمعنى آخر، جنيف هو المكان الذي ستنتصر فيه ورقة الكيمياء الدبلوماسية على ما يحدث على أرض الواقع.

ويبدو أن هناك أمراً بارزاً يعرقل بعناد تلك الكيمياء الديبلوماسية: إيران وروسيا تدعمان وبقوة ذلك النظام، والذي حرضت استراتيجيته الطائفية الفاضحة على النمو السرطاني لمعارضة إسلامية مسلحة عنيفة.

هذه المعارضة، في المقابل، تدفع من ساحة المعركة وتسقط الأهمية السياسية لأي شيء تفوح منه رائحة الاعتدال والوطنية اللاطائفية وقيم المجتمع المدني، وهي قيم يريد معظم السوريين أن تنعكس في حكمهم. إذا كان الهدف في جنيف تقويض السبب المسبّب لدمار سورية – وهو نظام الأسد– من خلال تقديم بديل يقبله الذين يصونون ويدعمون ذلك النظام، فقط لأن الإسلام المتطرف يبدو أنه البديل الآخر، فمن هو الذي سيقدم هذا البديل؟

هل هم ذوو الميول السياسية المعتدلة، الذين جعلهم فشلهم في حشد الدعم الفعال من الغرب وفي التجذر داخل سورية يهيمون للأسف على غير هدى ويفقدون المصداقية؟

أم أولئك الذين قرروا محاربة النظام باسم الإسلام دون انتظار إشارة من واشنطن؟

تلك هي المعضلة التي أوقعت إدارة أوباما نفسها فيها، فهي ترى الآن أنه كي يقوم مؤتمر جنيف٢ بوظيفة الانتقال السياسي المطلوب فإن على الإسلاميين غير المرتبطين بالقاعدة إما أن يأتوا بأنفسهم إلى سويسرا أو أن يفوّضوا الآخرين للقيام بذلك ولوضع لائحة تضم أسماء أعضاء هيئة الحكم الانتقالي الذي دعا إليه البيان الختامي لجنيف١ (حزيران ٢٠١٢) على طاولة المفاوضات في جنيف.

وهذا يحتم على الجبهة الإسلامية أن توافق على إقناع العلويين والمسيحيين وغيرهم (وخاصة أولئك الذين تقاتلهم في الأجهزة الأمنية) بأن الانتقال السياسي في البلاد لن يُقاد من قبل الإسلاميين، ولا من قبل الائتلاف الوطني، وبالتأكيد ولا من قبل تنظيم القاعدة، ولكن من قبل الذين نجحوا في خدمة سورية بشكل لائق دون أن يلوّثوا أنفسهم بالدماء، ودون أن يثروا أنفسهم بالفساد أو يحطوا منها بالإجرام.

بالنسبة لإدارة أوباما، هذا تطور غير مريح للأمور، وهي ترى أن النهاية المثلى هي مغادرة العائلة الجشعة الحكم، ثم انضمام القوات المسلحة الحكومية والمعارضة معاً للقضاء على وجود تنظيم القاعدة في سورية.

الإدارة الأمريكية ترى الوضع الحالي للنظام على درجة من الهشاشة تمكن من جلبه إلى نقطة الانهيار، ولكن فقط إذا كان من شأن المعارضة أن تتوحد في جنيف حول اقتراحات معقولة للانتقال السياسي. غير أن على إدارة أوباما أن تعتمد الآن على قيام تحالف الإسلاميين بطرح، أو بإعطاء التفويض لآخرين من أجل طرح، جدول للحكم الانتقالي من شأنه أن يطمئن ألدّ أعداء الإسلام السياسي في سورية.

ليس هذا بالأمر الذي تستطيع الإدارة الأمريكية تمريره بسهولة. فالإدارة التي تخلت عن المعارضة الوطنية السورية قد تكون قليلة أو معدومة الرغبة بالتواصل والتحاور مع الإسلاميين.

وكالعادة، في السياق السوري، ليس هناك إجابات سهلة أو حلول سحرية: السعي إلى الحوار مع الإسلاميين غير المرتبطين بتنظيم القاعدة؟

تقبل استمرار حكم سورية من قبل عصابة القتل الغارقة عميقاً في جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية؟ تهنئة الذات بتطهير سورية من السلاح الكيماوي، مع الوقوف جانباً بينما تحترق سورية ويصرخ أبناؤها رعباً؟

إن بقاء النظام يضمن انعدام أي مستقبل متحضر لسورية. فالعصابة الحاكمة ليست بديلاً عن الإسلام السياسي في سورية، بل هي محفز التمزق الطائفي وسبب وجود تنظيم القاعدة بما يضمه من مقاتلين أجانب. نهج الإدارة الأمريكية لتغيير هذا النظام عبر جنيف مقامرة صعبة، ومع ذلك فلا يوجد لديها خيار آخر سوى اللعب بالأوراق التي قطعتها لنفسها.

سورية: حين تتشابه الأشياء

جاد الكريم جباعي

القادرون على الرؤية من السوريين يرون وطنهم يتلاشى، مدنهم وبلداتهم وقراهم ومزارعهم تدمر، بكل صنوف الأسلحة المحللة «دولياً» والمحرمة «دولياً»، ولا حول لهم ولا طول. كل سورية، ممن تبقين، مشروع قتيلة أو معتقلة أو نازحة أو مهجرة أو... وكل سوري، ممن تبقوا، مشروع قتيل أو معتقل أو نازح أو مهجر، أو ... الفراغ ليس الذي لا يقال، بل سديم وعماء، يبتلع كل ما هو محدد ومعين، كل ما له معنى، وكل ما له قيمة، وكل ما هو حي. الفراغ موت الموت، أو حياة تشبه الموت. ما جريرة من عرفوا أنفسهم بأنهم سوريون غير أنهم ثاروا على «نظام معمول للبهائم»، ومحتوم بختم المنشأ، الذي أنتجه؟!

هذا النظام عزيز جداً على الروس والإيرانيين وباعة المقاومة، وعلى دول ثورية بعيدة. وعزيز على الأميركيين والأوروبيين وإسرائيل خصوصاً، وعلى باعة الحداثة والديموقراطية وحقوق الإنسان وحماية الأقليات. كلهم يعملون لإنقاذه.

«أصدقاء الشعب السوري» يمدون «المعارضة» ببعض السلاح، وأصدقاء السلطة السورية يمدونها بكثير من السلاح. لقليل السلاح وكثيره، قديمه وحديثه، النتيجة ذاتها: قتل سوريين وتدمير مدن وبلدات وقرى ومزارع، مدارس ومعاهد وجامعات ومشاف ومستوصفات وآثار ومتاحف ومتاجر ومصانع وبنى تحتية ومؤسسات... كلها سورية، القليل يكمل الكثير وبالعكس، القليل مثل الكثير وظيفة. «أصدقاء الشعب السوري»، من هذه الزاوية، كأعدائه. في نظر كثرة من السوريين، الاتحاد الروسي كالولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا، وإيران كإسرائيل، و «حزب الله» ك «جبهة النصرة»، ولواء أبو الفضل العباس كلواء التوحيد، و «الجيش الحر» كالجيش النظامي، والمعارضة (الديموقراطية) كالسلطة (الاستبدادية)، وشبيحة المعارضة كشبيحة السلطة، والعرب كغير العرب والمسلمون كغير المسلمين... كل شيء مثل كل شيء، ما دام يقوم بالوظيفة ذاتها ويؤدي إلى النتيجة ذاتها!

الأسلحة المحللة دولياً فتاكة ومدمرة، كالأسلحة المحرمة، ووظيفتها لا تتعين بشهادة المنشأ. الحلال والحرام متشابهان، ودول المنشأ متشابهة، كلها تصدر أدوات ووسائل للقتل والتدمير، وتصدر خبراء ومقاتلين، وتحلل صناعة السلاح وتجارة السلاح. والقصف العشوائي، كالقصف المركز، هدفهما واحد، وغايتهما واحدة، ونتائجهما متشابهة. كل شيء يشبه كل شيء!

انتصرت «قوى الثورة والمعارضة» على السلطة في بعض حمص وحماة وحلب وإدلب والرقة ودرعا وريف دمشق وغيرها، وانتصرت السلطة في بعضها الآخر، النصر كالهزيمة سواء بسواء، والمنتصر هو المهزوم، والقاتل هو القتيل، والوطن على المحك، والمجتمع على المحك، والدولة على المحك. كل شيء يشبه كل شيء.

الجيش النظامي يقصف من بعيد ثم يتوغل، ويعدم من يقعون في قبضته أو يعتقلهم، ومعه شبيحة من «جيش الدفاع الوطني» ينهبون البيوت والمخازن والمتاجر ثم يحرقونها، و «الجيش الحر» يفعل الشيء ذاته، يقصف من بعيد ثم يتوغل، ويعدم من يقعون في قبضته أو يعتقلهم، والكتائب المسلحة بالإيمان تعدم من يقع في قبضتها أو تخفيه وتساوم على حياته، وتنهب وتحرق. هؤلاء كأولئك وأولئك كهؤلاء، وكل شيء مثل كل شيء.

حين تتشابه الأشياء، على هذا النحو، لا يكون سوى العدم، هذا النوع من التشابه شاهد صدق على وجود العدم. العدم القائم فينا وبين ظهرانينا هو دوماً عدم شيء ما، عدم أشياء معينة ومحددة ومعروفة: عدم الأخلاق، عدم العقل وعدم الضمير وعدم الحياة الإنسانية، عدم الحرية، عدم المسؤولية، وعدم المساواة وعدم الكرامة الإنسانية، عدم الوطن وعدم الدولة.

سورية يبتلعها العدم، والسوريون يتعادمون. والدول «المعنية بالشأن السوري» تعاير مصالحها ونفوذها بالدماء. خمسون ألف قتيل لاجتماع تمهيدي في جنيف، مئة ألف أو يزيد لمؤتمر جنيف الثاني، فلاديمير بوتين قد لا يقبل بأقل من مليون، للعودة إلى المفاوضات بعد جنيف الثاني أو الثالث أو الرابع عشر، وسيد البيت الأبيض قد يزيد. الآلاف وعشرات الآلاف ومئاتها لا تليق بالدول الكبرى. الجمهورية الإسلامية الإيرانية قد تتطلع إلى تقليص عدد السنة في سورية ليعادل عدد الشيعة والعلويين، إذ لا بد من وجود السنة، قليل من السنة، وإلا كيف يكمن أن يوجد الشيعة أو العلويون والإسماعيليون والدروز؟! الآخر ضروري لتشكل الذات، واختلافه عنها ضروري لتشكيل هويتها وتمايزها وامتيازها، لأنه الأساس المطموس للذات، وعليه أن يظل مطموساً.

حين تتشابه الأشياء تتشابه الحقيقة والمجاز، لأن المعنى يكون قد مات، وتبعثه القيمة، وتكون اللغة مجرد أصوات، ويتشابه الخير والشر، والحق والباطل، والظلم والعدل، والعقل والجنون، والحكمة والطيش، والرشد والغي، والحياة والموت... هكذا هي سورية اليوم.

حين تقع الحرب، أي حرب على الإطلاق، وتطرح ما في جوفها من ويلات، وتنجب ما في رحمها من مسوخ، لا يعود مهماً من الذي بدأها، وما كانت أسبابها. فمن الضلال الزعم بأن هذا ضروري لإحقاق الحق، ما دام الحق هو حق الأقوى، أو لاستخلاص العبر وتعلم الدروس، ما دامت تجارب البشر لا تتكرر، والمجتمعات والدول لا تطابق نفسها في كل حين. فليس مهماً اليوم أن نقرر أن السلطة هي من بدأ هذه الحرب القذرة، وهي من بدأها بالفعل، ما دام يمكن للمقاومة والممانعة والتصدي للمؤامرة الكونية أن تعفيها من مسؤوليتها السياسية والأخلاقية عن الجرائم التي ارتكبتها وترتكبها، (إذا انتصرت)، وما دام يمكن لشعارات الحرية والكرامة ومزاعم «الدولة المدنية» أن تعفي المعارضين من مسؤوليتهم السياسية والأخلاقية عن جرائم مماثلة، (إذا انتصروا).

ما يجري في سورية، على مسمع ومرأى عالم يفترض أنه متمدن، وليس له من «ثأر بايت» عند السوريين، هو نوع من إدارة العدم وسياسة الموت، هو صيغة من صيغ «إدارة التوحش»، منهاج السلفية الجهادية في بلاد المغرب، المرقون في كتاب يحمل العنوان ذاته، «إدارة التوحش» من تأليف أبو بكر ناجي، وهو نسخة محدثة من كتاب سيد قطب «معالم في الطريق»، وشبيه بكتاب لينين الشهير «ما العمل». لكن إدارة التوحش في سورية إدارة حديثة ومركبة: دولية وإقليمية ومحلية. وثمة قاع معرفي وأخلاقي مشترك بين هذه وتلك وهاتيك. فهنيئاً للمنتصر، لأنه الأقوى والأمهر في إدارة التوحش

«عندما يكون الدفاع عن المستبدين مأثرة !

فواز طرابلسي

«لم أفاجأ شخصياً من انحياز تنظيمات يسارية بشكل صريح أو موارب للنظام الأسدي، ولا بدفاعها المعلن الرسمي أو شبه الرسمي عن النظام، ولا برفع ونشر صور بشار الأسد، وشعار الولاء الأبدي له، إضافة لصور حسن نصر الله..فالانحياز لنظام الأسد الابن هو امتداد لانحيازات سابقة لنظام صدام حسين ومعمر القذافي والأسد الأب وغيرهم. لكنني ما أزال مصدوماً من غياب أي نوع من الحساسية والتضامن مع معاناة الشعب السوري، الذي تعرض لقصف الطيران الحربي بالصواريخ والبراميل المتفجرة، وتعرض لصواريخ سكود المدمرة وللسلاح الكيماوي..الغريب كل الغرابة الصمت على محنة المخيمات الفلسطينية في سورية، على حصار مخيم اليرموك الذي بدأ سكانه بالموت جوعاً وبأعداد متصاعدة. لا يوجد احتجاج على موت ١٠٥ فلسطينيين تحت التعذيب كان آخرهم الفنان الشاب حسان حسان، لا سؤال عن ٢٠٠٠ مفقود فلسطيني لا يعرف مصيرهم، ولا سؤال عن إعادة تشريد أكثر من ٧٠٪ من سكان المخيمات داخل وخارج سورية. كيف يمكن تفسير تضامنكم مع نظام صنع النسبة العظمى من مأساة السوريين واللاجئين الفلسطينيين، وعدم تحسسكم لمحنة أبناء جلدتكم في المخيمات ومعهم أبناء الشعب السوري الشركاء الأكبر في الثورة وفي احتضان اللاجئين؟ ..لم يحتمل الرفيق تيسير الهجوم على النظام وحلفائه، ما دفعه للرد السريع. لكنه صمت طول الوقت ولم يوجه نقداً للنظام الذي يقتل ويشرد، ولم يتضامن مع الضحايا..المشكلة في الموقف أن له صلة بحقيقة الفكر والثقافة السائدين في معظم تنظيمات ونخب اليسار. ثقافة أدت إلى التباس الهوية اليسارية والثقافة التقدمية التنويرية، وقادت إلى الاختلاط بالثقافة الرجعية السائدة، وبالثقافة الشعبوية الرائجة. بفعل ذلك لا يمكن التفريق بين يساري وبعثي وإسلاموي وفتحاوي. لا تستطيع التمييز بين هؤلاء في الخطاب والممارسة وفي القضايا الاجتماعية. كان مبرر اليسار هو ربط التحرر الوطني بالتحرر الاجتماعي والتحرر من الاستبداد.

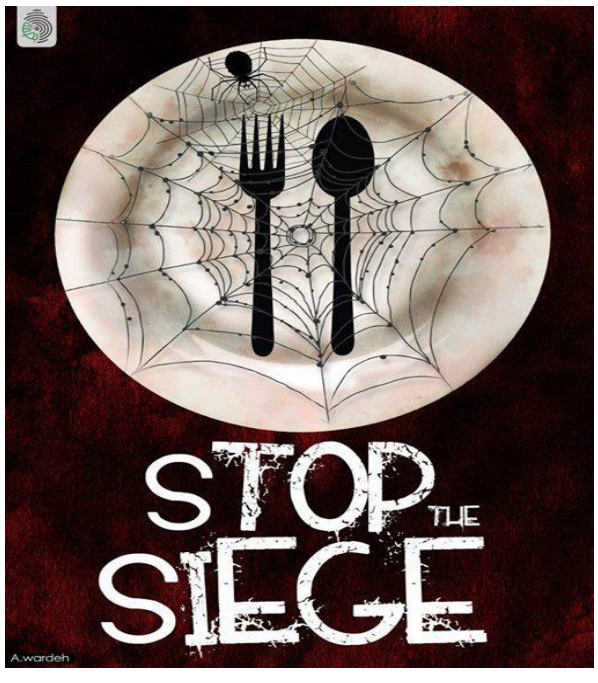

سوريا.. ميدان الأصولية

سلام السعدي

يستقبل السوريون العام الجديد وقد انتقلت ثورتهم من حال إلى آخر. فالثورة الشعبية الديمقراطية المدنية التي اندلعت في منتصف مارس ٢٠١١ لا تبدو على ما يرام. ففي حين أثقلها في عامها الثاني الخطاب الديني الأصولي، تكاد التنظيمات الأصولية المحسوبة على الثورة وعلى النظام، تجهز عليها تماماً في عامها الثالث.

يمكن ربط تطوّر الخطاب الديني في صفوف قوى الثورة السورية، بتطور مستويات العنف الذي فجره النظام في وجه المحتجين السلميين. إذ انتقل الخطاب الديني التقليدي الذي يعبّر عن ثقافة إسلامية عامة وعن غياب الحياة السياسية، إلى خطاب أيديولوجي أصولي غريب عن السوريين، وذلك مع انتقال همجية النظام وعنفه إلى حدود رهيبة ومفزعة، حتى يكاد تاريخ الصراع بين الأنظمة والشعوب لم يعرف مثلها قط.

في ظل نمو الخطاب الأصولي في صفوف المقاتلين، وفي ظل أكاذيب النظام وجرعات الخوف والتحريض الطائفي التي يبثها في إعلامه ومنذ بداية الثورة، كان شعور الخوف يزداد لدى الطائفة العلوية مع كل تقدم للثورة وتراجع للنظام. والحديث في هذا السياق لا يخص الفئات التي تورطت بأعمال القتل وتطوعت كـ"شبيحة"، وإنما الشرائح المدنية الواسعة التي لم تقاتل إلى جانب النظام، لكنها تهجس بمصيرها وتتوقع أن تدفع ثمناً باهظاً إذا نجحت الثورة في إسقاط النظام.

هكذا، عجزت الثورة، حتى في طورها السلمي وخطابها الوطني، عن اجتذاب العلويين إلى صفوفها. إذ ساد اعتقاد راسخ بأن الثورة السورية، وفي أحد وجوهها، سوف تجرّدهم من كل "المكاسب" التي حظوا بها في عهد النظام. وحقيقة الأمر أن لا مكاسب حقيقية تخص الطائفة العلوية كشريحة سكانية خلال فترة حكم الأسد، إذ اقتصرت المكاسب على دائرة ضيّقة، خدمت النظام وكانت عوناً له في سياساته الإجرامية على كل المستويات. أما المناطق التي تقطنها الطائفة العلوية فهي مناطق مهمشة وفقيرة، وأبناء هذه الطائفة- كما أبناء كل سوريا- يعانون من البؤس والحرمان، ولاشك في أن النظام السوري تعمّد الإبقاء على حالة الفقر والحرمان تلك، حتى يتسنى له استغلال المعاناة وإدخال الطائفة في سياسته الأمنية لإحكام قبضته على الدولة.

النظام نجح إلى حد كبير في ذلك، وهو يقاتل منذ عامين كميليشيا متلاحمة أكثر منه كجيش، ويظن معظم أفراده المقاتلين في العمق، أنهم يخوضون صراعاً من أجل البقاء الجماعي. استغل النظام حالة الذعر التي تعيشها الطائفة العلوية، وأبرز في خطابه الداخلي كل أخطاء الثورة وأخطاء المعارضة، خصوصاً تلك الأخطاء التي تعزز من رعب الأقليات، وتظهر الأصولية الدينية في أبشع صورها، ولم يخل الأمر من الكذب والتلفيق والمبالغة في كثير من الأحيان. ومع تصاعد الانشقاقات السياسية والعسكرية والأمنية عن النظام، ازدادت الروابط الطائفية فيه، والتي باتت تشكل سلاح الأمان والثقة في بيئة عامة معادية للنظام، وهو ما أطال الصراع ورفع من الخسائر والتضحيات.

كانت تلك اللوحة التي تصور التركيب الداخلي للنظام كفيلة بمنع احتمالات أن تنهار السلطة بشكل مفاجئ ودراماتيكي، كما حدث في مصر وتونس. إذ جعلت الرابطة الأهلية من النظام السوري شديد التماسك والمرونة، هذا بالإضافة إلى الدعم الدولي والإقليمي والطائفي من دول مختلفة، وهو ما جعل النظام يواصل الحرب ويتأقلم معها.

لقد عزز الخطاب الأصولي الذي اجتذبه الدمار والقتل المجاني الواسع النطاق، من قوة النظام السوري وأسبغ عليه نوعا من "الشرعية" التي كان يبحث عنها. إذ نقل هذا الخطاب عامل الانقسام الأهلي الذي وجد منذ اليوم الأول لاندلاع الثورة، إلى موقع شديد التأثير في مجريات الواقع. فأضفى الانقسام الأهلي على النظام السوري قوة وتماسكا أكبر، ودعما دوليا وإقليميا شديد الإخلاص حتى الرمق الأخير. هكذا، فمن تجاهل وجود هذا الانقسام وغرق في أدلجة الوطنية، توقع سقوط النظام بعد أشهر فقط من اندلاع الثورة، وتوقع انفضاض الموالين من حوله وهو ما لم يحصل، بل تعزز.

ويبدو أن الالتفاف "الأقلوي" حول النظام قد تحول هو الآخر، في العام الفائت، إلى نوع من الأصولية القاتلة. فتقاطرت المليشيات الطائفية، حزب الله ومليشيات إيران والعراق، التي شكلت الوجه الآخر لتنظيم القاعدة بفرعيه في سوريا، داعش وجبهة النصرة. وقد نقل تفشي الأصوليين في صفوف النظام السوري، قسما من الموالين له إلى مركب الأصولية الذي لم يعد حكراً على الثوار الذين تعرضوا إلى أقسى حملات التنكيل والإجرام، فبات كل السوريين في الأصولية سواء.

لقد حافظ النظام السوري على وجوده، بعد أن زرع بذور الأصولية في المعسكرين، وأشرف على رعايتها حتى شبّت وتطاولت تحت ناظريه. وها هي سوريا اليوم، وقد باتت ميداناً واسعاً للأصولية الدينية المدمّرة، التي لا تشبه أياً من السوريين. لا تشبه إلا النظام، بعقله الإقصائي، وسلوكه الإجرامي المدمّر.

السوق السوداء تحتكر الغاز السوري

مروان أبو خالد

يستهلّ السوريون عامهم الجديد بأمنية واحدة تتمثل بالقدرة على تحصيل حد الكفاف للعيش ليس أكثر، بعدما حولت حكومة الحرب، بسياساتها الفاسدة، حياة السوريين إلى سلسلة من الأزمات المعيشية التي لا تنتهي، كان آخرها أزمة الغاز التي عاودت الظهور مجدداً في دمشق وريفها، بعد انخفاض كميات اسطوانات الغاز في مراكز التوزيع الحكومية. ما دفع المواطنين إلى التوجه للسوق السوداء التي استجابت لحاجات الناس برفع سعر إسطوانة الغاز لأكثر من ضعف سعرها الرسمي. فقد بلغ سعر إسطوانة الغاز في السوق السوداء ٢٥٠٠ ليرة في أقل تقدير، على الرغم من أن سعرها الرسمي ١١٠٠ ليرة. وارتفع سعر تعبئة الغاز الصغير المنزلي إلى ١٠٠٠ ليرة.

وبحسب التصريحات الحكومية، فإن نقص المعروض يعود لتوقف استجرار الغاز من مستودعات منطقة عدرا، نظراً لإشتعال العمليات العسكرية فيها، والنقص المؤقت الذي حصل من استجرار الغاز من وحدة جمرايا والذي تضاربت التصريحات حول أسبابه. فبينما أشار مدير المؤسسة العامة للخزن والتسويق إلى أن سبب ذلك يعود لخلاف حاصل بين وزارة النفط والشركة المستثمرة لوحدة غاز جمرايا، ما انعكس في خفض كميات الإنتاج، نفت وزارة النفط هذا الكلام مؤكدة أن أي خلاف سيحل بشكل ودي وأن الشركة كانت تجري أغراض الصيانة وعاودت من جديد لإنتاجها الطبيعي. وبالطبع فإن هذا التضارب في التصريحات اعتاد عليه السوريون من حكومة تفتقد لأدنى مقومات التخطيط والتنسيق المؤسساتي، وقد يكون الهدف من هذا التضارب هو تشويش المواطنين عبر أسباب وهمية لتغييب السبب الرئيسي الذي يقف وراء الأزمة. كذلك رأى بعض الحريصين على تلميع صورة الحكومة أن سبب الأزمة هو الإستجرار الزائد من قبل المواطنين، نظراً لاعتمادهم على الغاز للتدفئة.

المستغرب في هذه التصريحات يتمثل بردّ الأزمة إلى نقص في المعروض، فلو كان هناك نقص أو توقف في إمداد بعض وحدات الإنتاج يستدعي حقاً حصول أزمة، فمن أين تأتي الإسطوانات التي تباع في السوق السوداء؟ وهذا ما يعيد الجواب إلى الحلقة الأولى المعروفة، أي ان المسؤولين عن نقص مادة الغاز في المراكز الحكومية هم أنفسهم من يؤمنونه للسوق السوداء التي يفضل تسميتها سوق الفساد الحكومي. علماً أن الاسطوانات المباعة في السوق السوداء مغشوشة وغير مختومة رسمياً. إذ يلاحظ المستهلكون أن إسطوانة الغاز التي من المفترض أن تخدم قرابة الشهر، ولكن تلك المباعة لهم في السوق السوداء لا تكفي عملياً لأكثر من عشرة أيام أو أسبوعين على الأكثر. وتتنوع أساليب الغش، حيث يجري تفريغ كميات بسيطة من مجموعة اسطوانات لإستخدامها في تعبئة الاسطوانات الصغيرة، أو تفريغ كميات كبيرة من الإسطوانة وتعبئتها بالماء، حتى لا يشعر المواطن عند الشراء بفرق في الوزن. هذا فضلاً عن الكثير من أساليب الاحتيال المبتكرة. إلى ذلك، يبدو عزو الأزمة إلى استخدام الغاز للتدفئة غير مقنع. ذاك انه إذا كان السوريون عاجزين عن تأمين نفقات التدفئة الأرخص من الغاز، فكيف يمكنهم تحمل تكاليف التدفئة على الغاز المرتفعة، لاسيما أن ارتفاع أسعار مدافئ الغاز إلى ما بين ١٥-٢٥ ألف ليرة، حرمت السوريين من مجرد التفكير في اقتنائها.

ويرى الكثير من السوريين ان الأزمة الحالية مقدمة لفرض زيادة جديدة على سعر إسطوانة الغاز، وعلى الرغم من نفي وزارة النفط لنيتها رفع الأسعار في الفترة المقبلة، إلا أن التجربة معها غير مشجعة، فالزيادات السابقة كانت تسبقها أزمات في العرض بمراكز التوزيع الحكومية، يعقبها ارتفاع جنوني في أسعار الغاز بالسوق السوداء، ومن ثم إنتشار شائعات حول رفع السعر الرسمي يصاحبه نفي حكومي، وخلال ذلك يتم إخضاع المواطنين لأسعار السوق السوداء الجنونية، لتعلن الحكومة فجأة بعدها أنها رفعت السعر الرسمي، ولكن بنسبة أقل من السوق السوداء، فتوهم المستهلكين بأنها حريصة كل الحرص على توفير الغاز لهم وبأفضل الأسعار!

عن حسّان حسّان وابراهيم ابو دية

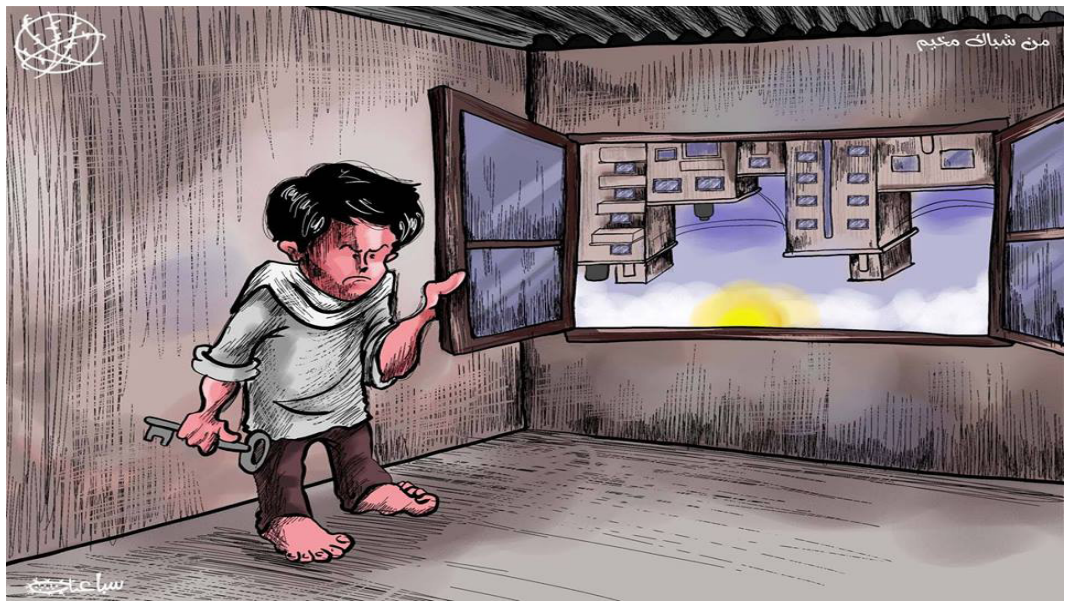

كتب زياد خداش (رام الله):

رسالة حب إلى بطلَي ليلتي

ليس هناك من علاقة مباشرة بين حسّان حسّان وإبراهيم أبو دية، فهما من زمنين متباعدين جداً، ربما قرأ حسان شيئاً عن بطولات إبراهيم، لكن إبراهيم بالطبع لم يعرف بطولات حسان، فحين مات إبراهيم في بيروت في أوائل الخمسينيات لم يكن والد حسان قد ولد بعد، الشيء الوحيد الذي يربطهما بعضهما ببعض هو كونهما فلسطينيين، عاشا بطلين يحلمان بالحرية وماتا بطلين، من أجل الحرية، ولكن ما الذي يجعلني أجمع بين حسان وإبراهيم في نص واحد، وعلى أبواب عام جديد؟ كانت محض صدفة، إذ بعد قراءتي لسيرة إبراهيم أبو دية للمناضلة نهيل عادل عويضة وفيما أنا (أتصفح الفيس بوك) قرأتُ نعياً لحسان في صفحة الصديق الكاتب الفلسطيني المغترب هاني عباس ابن مخيم اليرموك، وصديق الشهيد حسان، كتب هاني (بما معناه) كلاماً مؤثراً، تحت صورة لحسان وهو يبتسم بسخرية: (حتما سخرتَ منهم بهذه الابتسامة وهم يأخذونك إلى موتك يا حسان).

استشهد الفنان الفلسطيني الكوميدي الشاب حسان حسان في سجون سورية قبل أقل من شهر، وكان أمير الكفاح الفلسطيني إبراهيم أبو دية قد استشهد في بيروت أوائل الخمسينيات، متأثراً بحزمة من الجراحات أصيب بها في أكثر من معركة في فلسطين.

كانت ليلتي غريبة، زاخرة بسيرتي بطلين لا يُحتمل صفاؤهما ولا يُصدق كرمُهما، وهذا ما لم أستطع تحمله، وكنت أعرف أنني سأُجَنّ لو بقيت في البيت، وطالما أصابني هذا الشعور حين يرحل شخص شجاع لا يوصف صِدقه، خرجتُ مسرعًا أكاد لا ألتقط أنفاسي، مشيت كثيراً، وأنا أفكر، في معنى وحقيقة وواقعية الشعار الذي نردده كثيراً عند الأزمات: دمُهما لن يذهب هدراً، هل حقاً أن دم حسان وإبراهيم لن يذهب هدراً؟ كم مرة قلنا هذا الكلام؟ وكم مرة سنقوله؟ وكم مرة هُدرت دماء كثيرة وذهبت في الواقع هدراً؟. اكتشافي المفاجئ لخواء هذا الشعار أطار صواب قلبي، شعرتُ بخطواتي تسرع، ويتعثر بعضُها ببعض، وأنفاسي تتلاحق، ورأيتُ قطار الشهداء الفلسطينيين على مدى عقود طويلة من الغناء والحب والفداء وهو يهوي في حفرة عميقة جداً، ذاهباً إلى خسارته الكبرى دون أن يغني له أحد، وسمعت أصواتهم المحروقة وهي تنفجر انفجارتها الأخيرة: ليتنا لم نفعلها، ليتنا لم نفعلها، لكن ورداً يانعاً أزرق، رأيته فجأةً ينتصب من محرقة الشهداء، كان يغني أغنيةً ناعمة وقوية بلغة غامضة، أما يدي المعتوهة فلم أصدقها وهي تطرق باب أول بيت في حي (بطن الهوى): سيدي، هل تعرف أين يسكن حسّان وإبراهيم؟.

بابا نويل وخطاب التنحي

ريزان حدو

(بابا نويل يلقي خطاباً جماهيرياً بلهجة هادئة حزينة)

في ظل هذه الظروف العصيبة التي نمر بها والنكسات والهزائم المتعددة التي لحقت بنا والمعاناة الكبيرة؛ لقد اتخذت قراراً أريدكم أن تساعدوني على تنفيذه:

لقد قررت أن أتنحى عن جميع مناصبي النويلية وأن أعود إلى صفوف الجماهير

(الجماهير مندهشة ومستغربة ومصدرة لتعابير غير مفهومة من مثل : بئ تئ لئ حئ بئ ماع ماع).

بابا نويل يقوم بحركة واحدة بيده تهدأ من انفعال الجماهير و يتابع خطابه

لقد قررت التنحي لعدم قدرتي على تنفيذ طلبات وأمنيات الشعب السوري وذلك للأسباب التالية:

(وهنا تتغير لهجة بابا نويل من لهجة هادئة حزينة إلى لهجة غاضبة متوترة)

أولاً: بحب قول للشعب السوري أنا بابا نويل ماني عتال، انكسر ضهري وصار معي ديسك وأنا عم وصل جرة غاز لهاد وبرميل مازوت لهداك.

ثانياً: أطفال سورية صايرين قليلين أدب، تخيلوا وأنا طاير بعز البرد بشوف الأطفال بالشوارع بحن علين وبزتلن الهدايا، بدل ما يشكروني بينبطحوا على الأرض وبصيروا يصرخوا برميل برميل، هو أنا بعرف حالي سمين شوي بس مو عيب ينادولي برميل برميل؟!. و ياريت بس هيك، بينادوا برميل برميل تكبير الله أكبر، وانظروا أيها العرب انظروا أيها المسلمون

شو أنا فرجة للعرب وللمسلمين.

ثالثاً: أنا بحياتي ما فرقت بين المسيحيين و المسلمين، مو عيب على داعش تخطف غزلاني وتأخذهم إلى غابة الذئاب وتهدد بذبحن وسلخ جلدن إذا ما سلمتن رأس السنة مشان يقطعوه؟!

رابعاً: كلو كوم وقدري جميل كوم الله وكيلكن صار معي انفصام بالشخصية وصرت عم هلوس من تحت طلباتو، بدو يكون بحكومة النظام وبنفس الوقت بدو مني أقنع السوريين والعالم أنو معارض.

ولذلك (يعود بابا نويل ليخاطب الجماهير بلهجة هادئة وحزينة) ولأسباب أخرى قررت التنحي.

وبعد انتهاء بابا نويل من خطابه فجأة يندس فيه العرق العربي وتحديداً عرق الزعماء والمسؤولين العرب كون العرق دساس، ويكفهر وجهه غضباً وخوفاً و ندماً ويستدعي ابنه نويل ويأمره بأن يصطحب مرافقة ويذهب للجماهير ليطلب منهم الخروج في مسيرات عفوية تطالب بعودة بابا نويل إلى مناصبه والتخلي عن قراره بالتنحي .

حتى أنت يا بابا نويل

من الخوف والحرية

فرج بيرقدار

لقد راقبتُ وخبرتُ، لعقود طويلة، معنى الخوف بمعناه الشامل المتفشّي. أعني الخوف كمنظومة بيولوجية، نفسية، سياسية، ثقافية، اقتصادية، اجتماعية وحتى أقصى تفاصيل الحياة في القول والفعل.

الخوف هو البوّابة الشيطانية للأَسْر وبالتالي العبودية الطوعية. الاستعباد القسري أمر مختلف. لا يمكن لمن يرفضه أن يكونَ عبداً أو أسيراً إلا بالمعنى الشكلي والموقت، أي خارج منظومة الخوف والاستسلام.

يصعب على مَن يتملكه الخوف، أن ينتج معنى مهما، أو أن يبدع في مجال مهم. ليس في العبودية أي قيم نبيلة أو إنسانية راقية. الأكل والشراب من أجل الحياة فقط لا علاقة له بمنظومة القيم بل بالغرائز. لقد أدرك نظام الطاغية الأب ذلك، وحاول جاهدا فرضه من أجل تخليده حيا وميتا عبر التوريث، ولهذا جرى تخويف السوريين لزمن طويل ومرهق، بل إن الأسد الأب قدّم أمثولات رعب في حماة وحي المشارقة في حلب، كما في إدلب وجسر الشغور وسجن تدمر وغيره، إلى أن استسلمت نسبة كبيرة من السوريين للخوف كمنظومة.

أتذكر كيف بدأت أخلاق مجتمعنا تتغيّر في أواخر السبعينيات من القرن العشرين. لقد تربّيت في الأسرة والمجالس والمساجد على أخلاق ومفاهيم وأقوال من مثل«كلمة المرء هي شرفه» أو «إن من أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» أو «إذا كان الكذب يُنجي فالصدق أنجى» أو «لا يصحّ إلا الصحيح» أو «لحم الحرّ مرّ» وغير ذلك من الأقوال الحافظة لتوازن أخلاق المجتمع. كنت أقرأ من أمثال هذه الأقوال على أوراق الروزنامات. بعد ذلك انحسرت ثم تلاشت أمثال تلك الأقوال والقيم.

لذلك أعتبر أن كسر حاجز الخوف في آذار ٢٠١١ هو أشبه بالفاتحة في قرآن الحرّية.

لقد بدأ الشعب السوري يستعيد حضوره وقيمه وإبداعاته بالأقوال والأفعال. إبداعات في التظاهرات، في التغطيات الإعلامية، في الشعارات والأغاني والأفلام والمجلات والمواقع الالكترونية، في الإغاثة والتضامن الوطني رغم كل المحاولات الحثيثة للطاغية الوريث في تفتيت الوحدة الوطنية، وبالطبع لا أنسى بطولات الثوار وتضحياتهم رغم شحّ الدعم، ورغم إرباكاتهم بما تمثله «جبهة النصرة» و«الدولة الإسلامية في العراق والشام» من ألغام وطوابير خامسة.

ربما لأول مرة أعرف سوريا على حقيقتها الأخلاقية والثقافية وحتى الجغرافية.

لا أشك أبداً في أهمية إبداعات الآداب والفنون على اختلافها، ولكني أعتقد أن إبداع الحرّية هو الإبداع الأقصى في تاريخ الشعوب، وها هو شعبنا يبدع الآن حرّيته.

نصوص الغوطة.. إلى الشهيد مأمون نوفل

علي سفر

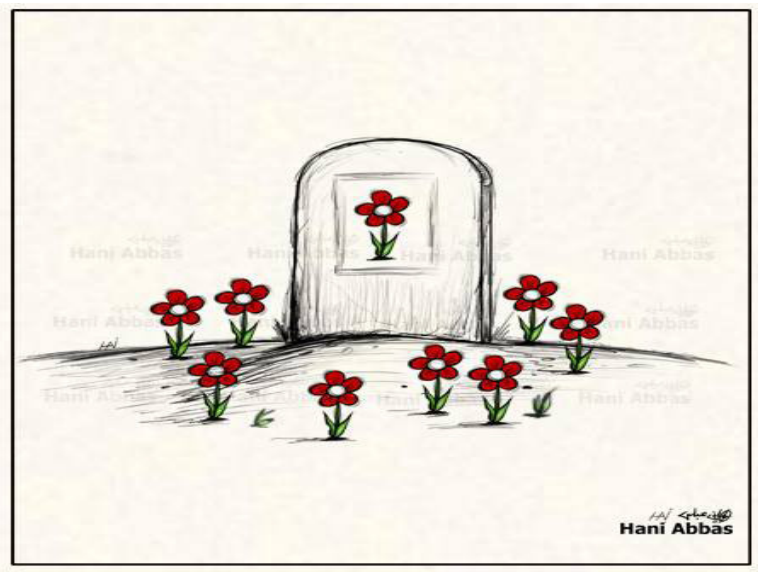

لا أريد أن أحتفظ بعقلي، خذوه منّي، لم يعد ينفعني، ورغم أني تعبت عليه، أقترح عليكم أن تبيعوه لأقرب مختبر، وقولوا لهم لستم بحاجة أن تضعوه في قطرميز وتغطوه بسوائل حافظة، عقلي تفسَّخ وهو في رأسي، ولن ينفعه أي شيء...

لا أريد أن أحتفظ باللغة، نخلوا كل كلامي، ودعوه أمام الريح، وما سيبقى، أطرقوه بالحجارة... لا شيء مما قلته يستحق الإبقاء عليه.. أريد أن أتحوّل إلى كائنٍ بلا عقل وبلا لغة.. حينها أستطيع أن أحذر من الكائنات التي تسمّى بالبشر، وبينما سيحنو عليَّ البشريون منهم، سيُطلق ذوو الأصول البهيمية منهم عليَّ النار.. لا أريد... وفقط... لا أريد...

قلت له: عليك أن تغادر طالما أنهم يلاحقون خطواتك، ابتسم ساخراً من الفكرة، ومضى يشرح لي الأسباب التي تجعله يتروّى قليلاً قبل أن يأخذ القرار، صديقي الذي تركك لمشاريعه كي يعمل في إغاثة اللاجئين، كنت أتهمه بالمبالغة، إذ لا يُعقل أن يعمل طيلة الليل والنهار دون أن يرتاح قليلاً، وأذكر أن لاجئة في مدرسة قريبة كانت تعاني من نوبة عصبية، وتحتاج إلى دواء مناسب، كيف قام في ذلك الوقت المتأخر بتوصيل الدواء إلى المدرسة متخطياً الحاجز البغيض.

كان بإمكانه أن يسافر ولكنه قرّر البقاء متجاهلاً التحذيرات والتهديدات التي كانت تصله، مأمون نوفل، الشهيد ابن الشهيد، لم تستمع سوى لقلبك وروحك، وها أنا أكتب عنك بعد أن مضيت...

في لحظة لم أتوقع أن أصل إليها...

ماذا سأقول يا مأمون... أعرف تكرهك لهذا الكلام، وأدري أنك تضحك الآن في عليائك على سجّانيك، وتهمس لأرواحنا الصاخبة أن اصبروا قليلاً، فبعد قليل سنزرع الأرض بأرواح من رحلوا كي تنبت مستقبلاً حراً لسوريا...

مأمون، أعتذر منك، لم أستطع أن أبقى، وأنت تدري أنها رحلة السرب الطويلة، في هجرتنا المديدة نحو السماء.. محبّتي لك...

ماذا تتركون لنا سوى الحقد...؟

١٦٠٠ شجرة نبتت، واستطالت ثم برعمت وأزهرت وأثمرت...

في مثل هذا الوقت، كنا نمضي شرقاً، إلى الغوطة، لنباشر سيران الجمعة، واليوم ما زلنا على عادتنا، نمضي شرقاً لنباشر مأتمنا الكبير، في ظلال هذه الأشجار...

جمعة للأرواح المشجرة في سماء هذا العالم البغيض...

الثرثرة تحاصر السوريين، وحدها المقابر صامتة...

فراغات، كل من غادر ترك فراغه، البعض جاء الغبار والقاذورات ليسدّوا فراغه، والبعض ما زال هنا كمن ينظّف فراغه، إذ لا يمكن للمشهد أن يستقيم دونه...

دمشق مدينة تحتضر...

ما يتوفر في الغوطة الآن: آلاف الأمتار من القماش الأبيض... تكفي مليون ونصف مليون سوري...

قماش أبيض سيبقى أبيضَ حتى وإن غطاه التراب...

وكنت أعيش على مبعدة ١٥٠٠ متر عن مكان قصفوه بالكيماوي...

أكتب لكم من عالم آخر

أنا ميّت منذ ساعات الفجر...

أنا لست شهيداً...

أنا مجرّد كائن... مات لأسباب إنسانية.

محض جثة

تشرق عليها الشمس...

صور أطفال الغوطة ستزعج إدارة الـ«فيس بوك»، كما سنُزعج نحنُ أصدقاءنا العرب والأجانب ونحن نتحدّث عن المذبحة...

سيتبرّمون ويهمسون: ها هم السوريون مرّة ثانية...!

نحن القطعة الوحيدة الباقية من العالم القديم...

سنسقط قريباً... كلنا سنسقط، قصفاً حرقاً اختناقاً ذبحاً قهراً وتسرطناً وتجلطاً...

قريباً سترتاحون منّا، ولن تزعج صور قتلانا صفحاتكم البهيّة الزرقاء هنا، وستعود إليكم نشرات الأخبار نظيفة من الدم...

وإذا نظرتم إلى الخريطة ستجدون بلدنا مجرّد ثقب أسود خامد... ثقب صغير ابتلع معه كل صفات البشر...

طيبوا عيشاً... ولا تنسوا أن تحتفلوا بالخلاص من المأزق...

وفي الساعة الثانية والربع من فجر هذا اليوم، وبعدما نام الجميع فرحين بانتصاراتهم في مصر وفي إسطنبول، وبعدما غفا حراس العالم...

تبدّل الهواء في غوطة دمشق... وتحوّلت أحلام الصغار النائمين من فرح عابر إلى زرقة وبياض دائمَين...

الغوطة ليست مجرّد خبر، وهي ليست مشروع تنديد جديد، الغوطة أرواحنا المغروزة بالأشجار...

الرحمة للشهداء...

لا يوجد قطع غيار للإنسانية...

يا أول الصفو.. هذا آخر الكدر

عيسى الشيخ حسن

بمرور العام ٢٠١٣ يكون العرب قد أمضوا ثلاثة أعوام في تقليب ربيعهم على نار الأمل والانتظار، ومناوشة عقابيله، والدفع عن شبهة انحرافه وانكفائه، واستمطار الوعود والآمال والأماني، والتوسّم خيراً بما بعد تبعثر الحجر، وتعثّر البشر.

ليست متاهة بورخيس، ولا متاهة الأعرابي، فردّ الفعل الشعبي المؤجّل فاق كلّ تصوّر، وارتدادات الغضب العربي طالت الجميع، بمن فيهم جنودها المجهولون، وسدنتها، وحرّاس انتصارها، وليست نبوءة نوستراداموس ولا أحاديث العرافين الذين تستضيفهم الفضائيات التافهة، فالله سبحانه وتعالى لم يشرك في علمه أحداً.

يقف العربيّ على قمة تفصل بين هاويتين، حسيراً إلاّ من همة تحتاج بصيرة، كليلاً إلاّ من صرخات عبس وذبيان تعاضده في دفع التعب إلّى نشاط له مساراته، عليلاً إلاّ من عافية تدفع بساقيه إلى طلب الرزق، ويديه إلى طلب الدعاء. يقف العربي بين حلم داعب بؤسَه، ونتيجة أكّدت يأسه، رائياً بعين واحدة، وسامعاً بأذن واحدة،

وصارخاً بنبرة واحدة. يقف العربي إلى الماضي والحاضر ويقنع نفسه أنه ديمقراطي (سكر زيادة) وليبرالي بدرجة امتياز، وأن فائض حكمته وذكائه يجب أن يوزّع على العالم بالقسطاس، وأن الحظ والمؤامرة وأحابيل أعداء الداخل هي التي أخذته إلى موقع لم يكن يستحقه.

يقف العربيّ وقد (فرمتَ) حاسوبه، ليجد أن قدرات الجهاز عاجزة عن تشغيل برنامج حديث، لأن بناه المتهالكة لاتحتمل غير برنامجه القديم الذي فقد عمره الافتراضي أيضاً، يكتشف العربيّ أن حداثته كانت قشرة هشّة مزيّفة، لم تكن غير بدلات أنيقة، وربطات عنق فاخرة، وحفظ أسماء العواصم الأوروبية، يكتشف أن الدولة عميقة، وأن التنظيمات عميقة، وأن الطوائف عميقة، وأنّ القبائل عميقة، وأنّ عناصر جيشنا الوطني ليسوا غير (جندرمة) القرن الثامن عشر، وأن جيش الموظفين الوطني ليس غير كتيبة أفندية استبدلوا بحديث المقهى أحاديث الفيسبوك والتويتر، وأن التليفزيون الوطني محاكاة للحكواتي في مقهى الحارة، ويكتشف أن ثمة نظام عمره قرون لا تمحوه فضيلة ولا توقفه إيديولوجيا، نظام يقول: " أطعم الفم تستح العين، ورشرش حبك يا جميل، ويجب أن تَطاطئ كي تعلو".

يقف العربي على تخوم السنين الثلاث، أملاً في انتصار إرادة الشعب، وأملاً في توقّف حمام الدم، ففي بلادي عجزت كل القوى في العالم أن تسكت صوت الرصاص ولو ليوم واحد، ولم يبق غير ربّ العالمين ملاذنا الأول والأخير، وفي بلادي بات رغيف الخبز حكاية، فعلى كلّ رغيف يجتمع الطاغية والضحية، والقنّاص والهدف، والدم والجوع.

ولأن الشمس تشرق كلّ يوم، والزهور تطلع كلّ ربيع، فإن لنا في ٢٠١٤ أملاً يستمدّ مشروعيته من إيماننا بقدرة الله على كلّ شيء.

أي محيط من الجماد غارق في أعماقه عقلنا العربي؟

ماسة بشار الموصلي

إن كتبنا عن تاريخ الأنظمة في مساحة من الوطن العربي نجد أن أغلبها أنظمة حكمها العسكر، أنظمة ديكتاتورية ذات أيديولوجيات جامدة لم تسع لتطوير ذاتها، بل أكثر من ذلك عملت على وضع سقف لعقل المواطن وتفكيره، فحصرت إبداعه في مدح السلطة وصولاً للكسب، وهذا على جميع الصعد، سواء الثقافية أو الاقتصادية المهنية وطبعا السياسية، وكذا الأمر نجده بذات المنطق إن تحدثنا عن الأحزاب أو الأنظمة الدينية مع اختلاف الأيديولوجيا. لقد أضحى نجاح أي فرد في هذه المجتمعات يعود في أساسه لسيادة السلطة الحاكمة، لا للعقل المبدع له، وهذا ما يعول عليه الإعلام التابع للنظام في نجاحه.

وبالمقابل نجد أن كثيراً من الطرق الموصلة للنجاح بشكل عام قد حُصرت في عقلية الشعوب عند طرق أبواب الفساد بتغطية من مسؤول نافذ في الدولة، وما ذلك إلا لأن فساد الأنظمة الحاكمة والقبضة الأمنية المخابراتية لها ارتفعت بقوتها الحاكمية على قوة إعمال القانون، وأصبح العدل قصة منسية وكذا الحق والأمانة والشرف والكرامة الإنسانية. في ظل أنظمة كهذه لا يمكن أبدا أن نضع أسباب تخلف المجتمع كاملاً على الأفراد، فنقول إن الدولة الفلانية متخلفة لتخلف أفرادها، لأن النظام الذي لا يحترم شعبه ولا يمده بأسباب النجاح، لا بد أن نجد شعبه يعيش تحت خط الفقر الفكري.. ومهما عمل الفرد على تطوير ذاته فكرياً وثقافياً وحاول عبر وعيه الملتزم بحدود مقررات السلطة الحاكمة استخدام حريته في التعبير، فإنه يبقى محدوداً كثيراً ضمن هذا القدر المسموح له به.

هذا ما هدفت له غالبية الأنظمة الحاكمة في وطننا العربي، عبر نصف قرن من الزمن، تأطير إبداع المواطن وحصره في قوقعتها حفاظاً على موقعها في الحكم، تحت شعارات ما عادت تجدي في القرن الواحد والعشرين عصر التكنولوجيا والاتصالات، الذي فتح أعين الشعوب لتطلعات أكبر بكثير من تطلعات الأنظمة، فكان أن انتفضت مطالبة بحقوقها في الحياة.

وفي خضم ما وصلت له هذه الثورات اليوم من نتائج يمكننا أن نستقرأ العقل العربي وكيفية تكوينه خلال المرحلة الماضية، لنجده منقسماً ضمن خيارين لا ثالث لهما، الأول: التابع للسلطة والخيار العسكري. أما الثاني فهو الخيار الديني تحت منظومة قيادة الإخوان المسلمين، علما بأنه في بعض البلدان التي تقدمت فيها الثورات عن مرحلة إسقاط النظام، كان الهدف خلالها مشتركاً بين كلا الطرفين.

وما هذا التخبط الذي وقعت به شعوبنا اليوم إلا سياسة ممنهجة لاستبداد حاربته عبر ثوراتها وتحاربه بشعارات المناداة بالديمقراطية والتعددية، ولكنها بنفس الوقت نشأت عليه وما استطاعت فكرياً تجاوزه بعد، استبداد طرف بالسلطة دون مشاركة الطرف الآخر، بينما العقل الحرّ وأمنيات المستقبل المنشود تتطلب خلقاً جديداً لفكر بعيدا كل البعد عن تلك الأفكار البالية التي ما عاد لها وجود في المجتمعات المتحضرة والمتقدمة فكرياً.

قد يقول قائل انني أحاجي الأوهام والخيال بما أدعو له من السعي لخلق فكر جديد يكون لنا قدوة لمستقبل نأمله، وأنه ليس بمقدور الشعوب الوقوف بمواجهة هذين التيارين اللذين يملكان كل أسباب القوة وأهمها المال والسلاح والتأييد الدولي.. ولكنني أرى أن هذا صوت اللاعقل، فمن سعى لحريته عبر ثورات ضد أنظمة مستبدة ظالمة، ودفع في سبيل ذلك أثمانا باهظة، لا بدّ أن يسعى ليصل إليها كاملة، فلا يستبدل مستبداً بآخر، بل إن الخيارات التي تفتح أبواب المستقبل كثيرة ولا شك أنها أنبل وأرقى وأسمى من خيارين عانت عقودنا الماضية من تخلفهما الفكري، الكثير.

فلنعلنها لا هذا ولا ذاك، ولنتبع نوافذ النور المنبثقة من العقل ولنمنحها الفرصة لإبداع أفكار تصحح مسارنا عبر تعاضد وطني مشترك من أجل إيجاد مفتاح المستقبل لبلادنا.

تعالوا لنصنع خياراتنا بأنفسنا فلا نتناول البالي منها والجاهز حد التخمة.

لن يعودوا إلى عائلاتهم في العيد

فاطمة العيساوي

أفادت رسالة من منظمة "هيومان رايتس ووتش" الحقوقية بأن المراسل الإسباني المخطوف في سوريا، خافيير أسبينوزا، لن يعود إلى بيته ليمضي الأعياد مع عائلته. وكان الصحافي الخبير في الشؤون السورية، ورفيقه المصور الصحافي ريكاردو غارسيا فيلانوفا، فُقدا وهما ينقلان أحداث الثورة السورية ويُعتقد أنهما معتقلان لدى الجماعات الإسلامية المتطرفة.

خافيير ورفيقه ليسا وحيدين في محنة تغطية الشأن السوري، إذ سجلت لجنة حماية الصحافيين إختفاء ثلاثين صحافياً على الأقل في سوريا ومقتل ٦١ آخرين منذ ١٩٩٢ في ظروف لا تزال في بعض الحالات غامضة. هؤلاء جميعا لن يعودوا إلى بيوتهم لمشاركة عائلاتهم وأحبائهم فرحة العيد.

قائمة "أبطال" تغطية الشأن السوري الذي بات يمثل منطقة النزاع الأكثر دموية طويلة تتصدرها مراسلة صحيفة "صنداي تايمز"، ماري كولفن، التي قتلت العام ٢٠١٢ في قصف لقوات النظام السوري في حمص وباتت رمزاً للشغف الصحافي في تغطية النزاعات وهي تغطية أتقنتها من سريلانكا إلى الشيشان.

واذا كان مراسلو الإعلام العالمي يحظون بالتغطية الأكبر لدى اختفائهم أو مقتلهم إلا أن العدد الأكبر من الضحايا هم من المراسلين بالقطعة الذين باتوا العمود الفقري لتغطية التطورات الدرامية للشأن السوري ميدانيا بعدما بات إرسال طواقم صحافية كاملة أمرا فائق الكلفة والخطر للمؤسسات الاعلامية، وبات رواده قلة قليلة بين الصحافيين المحترفين. هؤلاء الصحافيون الشبان، الذين

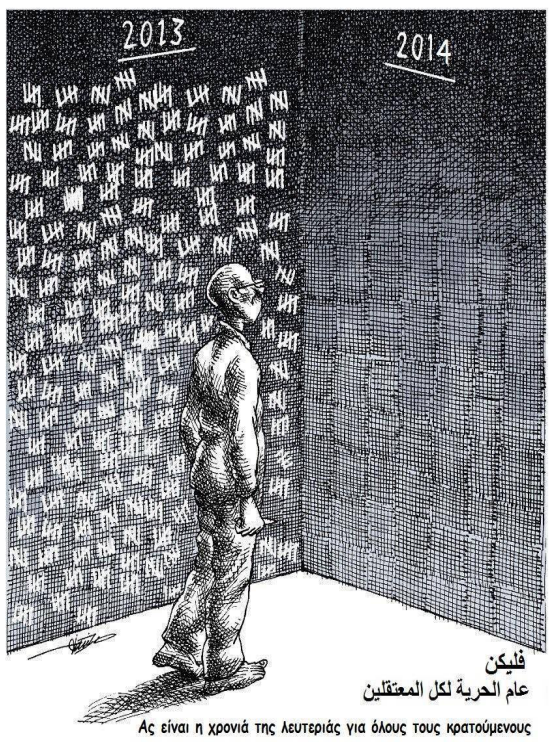

ارتموا في نيران الحدث السوري من دون أي حماية تذكر أو حتى حقوق، مقابل شغف دخول مهنة المخاطر من بابها الواسع، باتوا المزود الرئيسي لنا بالأخبار في هذا المشهد المعقد. لن تعود غالبية هؤلاء إلى بيوتهم أيضا هذا العام ولعل غيابهم لن يكون ملحوظا لبعدهم عن أضواء الإعلام.

في معظم دول ما يسمى بالربيع العربي، تحول عمل المراسلين الميدانيين إلى مخاطرة حقيقية. في مصر ما بعد الإنقلاب، بات هؤلاء المراسلون "أعداء" الدولة والهدف المستمر للإعتقالات والمضايقات. البعض منهم سقط في عملية فض إعتصام "رابعة" لأنصار "الأخوان" وما تلاها من أحداث عنف متواصلة. في ليبيا، سقط العديد منهم ضحية الرصاص المجهول وانكفأ البعض الاخر عن التغطية الميدانية بفعل التهديدات المجهولة من "الأشباح" الذين باتوا الحكام الفعليين لليبيا ما بعد القذافي، كما قال لي أحد الصحافيين في طرابلس في وصفه لغلو سطوة الميليشيات. في المنطق التبسيطي للأنظمة وأبواقها الإعلامية، ليس رواد التغطية الميدانية لمناطق النزاعات سوى عملاء لأجندات بلادهم أو الجماعات التي تحركهم. وقد باتت وقائع تغطيتهم الميدانية التحدي الأبرز للرواية الرسمية للأحداث التي تروج لها أبواق الدعاية الاعلامية النافذة.

في زمن وسائط الإعلام الحديث التي باتت مصدرا رئيسيا للأخبار وساهمت الى حد كبير في الخلط ما بين الشائعة والخبر، يشكل رواد التغطية الميدانية في مناطق النزاعات من مجازفي الولع بالمهنة عيوننا الحقيقية على الحدث بما يتجاوز بكثير سطحية ما تقدمه وسائط التواصل الألكترونية. من دون هذه التغطية المعمقة التي يقدمها هؤلاء وثمنها في بعض الحالات أرواحهم، كنا اليوم نغرق في ظلمة الجهل أو غباء أبواق الدعاية الرسمية.

لن يعود على الأرجح عدد كبير من هؤلاء إلى بيوتهم هذا العيد أو الذي سيليه. إلا أن نتاجهم الصحافي سيبقى شاهدا على ظلامية الأنظمة وعلى شغف صحافي بات عملة نادرة.

الثورة تولّد أعداءها..

حوار مع النحات السوري عاصم الباشا.

صبر درويش

لم يتردد النحات السوري عاصم الباشا في الانضمام إلى ثورة شعبه منتصف آذار مارس ٢٠١١، ودعمها بكل السبل الممكنة، بخلاف الكثير من المثقفين والفنانين السوريين الذين ما زالوا يتساجلون حتى الآن حول توصيف ما يجري في بلدهم.

وقد يكون من الغريب أن نخوض حواراً سياسياً مع فنان ارتقى إلى مستوى العالمية كحال الباشا، ونبتعد عن الحديث حول الفن والنحت..، إلا أن ما يحدث في سوريا اليوم يجعل من كل شيء سياسي بامتياز.

مبكراً غادر الباشا سوريا، واختار المنفى الطوعي، كان يحلم بسوريا الوطن عندما أنهى دراسته وعاد إلى "البلد"، ليفاجئ بسوريا الأسد، حيث كانت تماثيل الأسد الأب تجسم على كل خلية من روح السوريين؛ يقول الباشا: " جاءت ملاحقة القصر الجمهوري لي لإنجاز تماثيل "القائد إلى الأبد"! تلك هي الكوة الوحيدة التي فتحت أمامي كنحات. كانت الملاحقة ملحاحة (حملت التهديد الضمني التقليدي في نظام كهذا) وحملت عروضاً مالية مغرية للغاية. قرّرت مع زوجي ضرورة الرحيل. كان ذلك سنة ١٩٨٧.. وما زلت حتى الآن في المنفى الاختياري".

أغلقت عقود حكم الأسد كل أفق للإبداع في المجتمع السوري، فانحطت الثقافة ومعها الفنون، ودخل المجتمع في مرحلة تخلف قد لا تشبهها شيء سوى سنوات الحكم العثماني ربما؛ الفرد بصفته فاعلاً اجتماعياً سيضمحل تحت وقع الطغيان، وسيضمحل معه القدرة على الإبداع والخلق، وسيحل عوضاً عن ذلك دمار ثقافي وأخلاقي وحتى جمالي على صعيد المجتمع ككل، ومن رفض الانصياع إلى هذه المعادلة- الجريمة، فضل الرحيل خارج حدود الوطن، يقول الباشا: " ربما حاول حزب البعث الحكم قبل سنة ١٩٧٠، فما جاء بعد هذا التأريخ كان حكم عائلة عاثت في البلاد فساداً وإفساداً.. وطغياناً. انحدرت سورية وتراجعت عمّا كانت عليه في الستينات درجات كثيرة وليس في النحت فقط، بل في كل المجالات. يُقدّر عدد المغتربين المرغمين للبحث عن لقمة العيش في عهد آل الوحش بالملايين. فهل تعتبر بلداً يُجبر أبناءه على الهجرة بحثاً عن القوت بلداً قيد التطوّر؟ ثم أن أسباب الانهيار معروفة للجميع ويمكن اختصارها بذكر الأجهزة الأمنية الخادمة للنظام والعصابة التي استولت على مقدّرات البلد. ما من مجتمع أو شعب خال من المواهب، فهي تلد مع جميع الأطفال. الشرط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي هو الذي يسمح بتطوير هذه الموهبة أو تلك. لكنّ النظام منع الحلم! فضمرت قدرات أجيال بكاملها".

على هذا الواقع المرير انتفض السوريون، وباشروا مرحلة التغيير خاصتهم، بحراك ثوري سلمي، ركز منذ اللحظة الأولى على شعارات الكرامة والوحدة الوطنية والديموقراطية، بيد أنه ووجه بعسف وقمع قل نظيره، فانحرفت ثورة السوريين، أو هذا ما بدى للكثيرين، وراحت تأخذ منحاً آخر مختلفاً ليس أوله العنف الجاري على الأرض وليس آخره شبح الحرب الأهلية المخيم على المنطقة، بيد أن للباشا تصور آخر، يقول: "هي لم تنحرف في جذورها. ما زالت الغالبية تطمح لحقين بسيطين ومشروعين في كل الدساتير البشرية: الحرية والكرامة! مواجهة هذا المطلب بالقتل والاعتقال والتعذيب حتى الموت (كما حدث لأخي نمير) هو الذي جعل الشارع يضيف إسقاط النظام كمطلب إضافي في شعاراته السلمية. قلت باكرًا، ربما منذ سنتين أن علينا ألا ننتظر مساعدة من أحد، فالجهات الأربع لا تريد نجاح ثورة تسعى إلى الديمقراطية، وكل جهة لأسبابها الذاتية واستجابة لمصالحها. وكل تلك المصالح تصبّ، بشكل أو بآخر، في خدمة إسرائيل. لست سياسيًا محترفًا (كل إنسان يحمل رأيًا سياسيّ بالضرورة) ولا محللاً سياسيًا. أعتمد على قدر من الحدس وعلى ما أمكنني من العقل. تحريف وتشويه الثورة صنيعة النظام وحلفائه بمباركة من الغرب والجنوب. هي أسهل السبل لإحباط الثورة. وما أكثر المرتزقة في مجتمعات الفاقة والجهالة!".

بيد ان ثورة السوريين لم تتوقف بعد ولما تصل إلى نهايتها، فيصعب التنبؤ وإطلاق الأحكام المسبقة حول مستقبل الصراع الدائر اليوم، فالسوريون يقاتلون على عدة جبهات، ويسعون إلى شق أفق يعيد المعنى إلى حياة أجيالهم المقبلة، يقاتلون على جبهة نظام الأسد الحاكم، الذي وضع السوريين أمام خيارين: إما بقائه وإما فناء البلد!، ويقاتلون على جبهة التطرف ومن يقف خلفه ويسعى إلى فرض استبداد بديل عن الاستبداد القائم، ويقاتلون على جبهة الفاسدين الذين تسللوا إلى صفوف الثورة.. ويحلمون –رغم ذلك- بغد مختلف، يقول الباشا: " كلّ التجارب الثورية تَمرّ بمراحل وحالات كمون. الفرنسية احتاجت لأكثر من ٧٠ سنة حتى تحقّق شعارها الثلاثي. والثورة البلشفية سرعان ما أحبطتها الستالينية، فالثورة تولّد أعداءها أيضًا! أثمن ما يحدث بعد اندلاع الحالة الثورية هو الإفراج عن القلق المطمور في النفوس. شعب يضطرّ إلى العيش ساكتًا هو شعب مقموع بطغيان ما. ما من شكّ لديّ من أن المجتمع السوري بمكوّناته المتعدّدة التي تعني ثراءه وتميّزه لن يقبل قطّ استبدال استبداد بآخر ولو تقنّع بشعارات دينية. أجدني بين المتألمين المتفائلين، لأنني أعيش مع الزمن ولأجله، والزمن لا يعرف العودة".

"عائد إلى حلب" رواية الأهوال

نبيل سليمان

تنادي الحرب أول ما تنادي الموت. وفي سوريا، كما يخاطب أحدهم الراوي، صار الموت اعتياديا بعد آذار ٢٠١١، صار الموت يأتي على عجل ويمضي على عجل.

إنها الحرب، تستنهض أجمل وأقبح ما فينا. إنها الحرب حين يغدو الوطن جملاً تصطف لتحكي قصة الوجع المكابر.

بهذه العبارات يصدّر السوري عبد الله مكسور روايته (عائد إلى حلب). أما الحرب التي يعنيها فهي هذه التي تدور في سوريا وعليها، والتي كان الكاتب قد أوقف عليها روايته الأولى (أيام في بابا عمرو).

تتقاذف الحرب الراوي إلى أن ترميه في حي سيف الدولة في حلب حيث الهيمنة لجبهة النصرة. وهنا، كما سيلي في غير مكان، تجأر الرواية أن الوقت هو وقت الحرب العمياء التي تأكل السوريين. كأنها حيوان بري في أدغال إفريقيا. إنها حرب دون مجتمع حرب، دون خطوط أمامية أو خلفية لإسعاف الجرحى، حرب مختلفة الأهداف باختلاف الأطراف المتحاربة. وباختصار: «هي سقوط ضحايا أبرياء وتدمير الوطن".

في موقع آخر تخبر الرواية أنه لا يمكن لك في زمن الحرب السورية أن تمضي في رحلة دون أن تؤمن على حياتك من طرف ما من الأطراف المتحاربة، له حضوره وسطوته وارتباطاته على الأرض.

وقد تجسد ذلك في رحلة الراوي مع الصحفي الفرنسي من حلب إلى اللطامنة، حيث يقعان في فخ عسكري رسمي، سرعان ما سيهاجمه المسلحون فتنقلب الآية، ونقرأ أن كل شيء ممكن في الحرب على هذه الأرض، حتى انقلاب الأعداء إلى أصدقاء، وتخلّي الأخ عن أخيه، وإنقاذ عسكري لمعتقل تربطهما قرابة الدم. وهذا ما صادف الراوي حين ظهر ابن عمه العسكري في الجيش، فأنقذه. وتتابع الرواية القول: "في هذه الحرب يعود الضابط الذي كان قبل نومه ملكا يأمر وينهي إلى معتقل مكان من كان يعذبهم، ومن كان معتقلا يمسك بمفاتيح السجن، فتنقلب، المرايا وتتغير الألبسة فقط".

تنادي الحرب أول ما تنادي الموت. وفي سوريا، كما يخاطب أحدهم الراوي، صار الموت اعتياديا بعد آذار ٢٠١١، صار الموت يأتي على عجل ويمضي على عجل، ليترك على عجل أثرا يذهب على عجل أيضا، بعد أن يحفر في القلب مكانا. ولأن الموت قد فقد هيبته وسطوته في هذه الحرب، وفي هذه البلاد، فلنمض إلى ما دونه مما تناديه الحرب، وهو النزوح والتهجير والهجرة واللجوء والمخيمات. فقبل أن يصل الراوي إلى حلب، حل في (الريحانية) على الحدود التركية، حيث عاين المخيم الذي لا مقومات للحياة فيه، بل فيه انتظار الموت القادم، وحالة من العدم تترامى من مخيم الزعتري في الأردن إلى مخيّم كلس في تركيا. ولأن المخيم واللاجئين خزان من القصص، فقد اختار الكاتب من هذا الخزان ما أسنده لأصحابه، مومئا إلى الوثائقية باكتفائه بالحرف الأول من اسم الشخصية التي تقص قصتها.

ومن ذلك (س. ك) اللاجئة من دير الزور، وكان زوجها قد قضى في انهيار سد زيزون عام ٢٠٠١، كما قضى ابنها الوحيد مع الجيش الحر، لكن أحدا ممن كانوا معه لم يهتموا بها وبابنتيها اللتين تعرضتا للاغتصاب أمامها. وتتضافر القصص لتعزز الصور الإجمالية التي تقدمها رواية (عائد إلى حلب) عن مخيم اللجوء. ومن ذلك أولاء الشباب الذين ينتظرون المساعدات التي سمعوا بقدومها، وكذلك هم المراهقون الذين وقفوا في منتصف المخيم بانتظار فتاة تعبر "كي يفصلوا جسدها ويقيسوا طول ساقيها وتدوير نهديها". ويحكم الراوي بأن هذا الأمر مقرف، وأن أولاء المراهقين عابثون. وإذا كان المخيم، بحسب الراوي، هو أكثر كيلو متر مربع على الكرة الأرضية ينعم بالحرية، حيث بوسعك أن تقول ما تري دون الخوف من أحد "فالموت قادم قادم"، ففي الصورة الكبرى للاجئين ما عاد أحد يخشى أحدا، إلا أن يكون حاملا للسلاح، فحامل السلاح قد يخيف الجميع. واللاجئون الذين يتشاجرون أمام المساعدات "المغموسة بالمصالح" يقيّمون في جلساتهم التسليح، والعمليات، ومؤتمرات المعارضة، والدعم الأجنبي، ويرسلون لعنتهم على كل شيء، ويتذكرون كيف استضافوا العراقيين عام ٢٠٠٤ واللبنانيين عام ٢٠٠٦ "يتذكرون وفي قلوبهم غصة من بلاد العرب التي ترفض أن تعطي أبناءهم فيزا لزيارتها والعمل بها"

(عائد إلى حلب) رواية مغمسة بالدم والوجع والقلق، وقبل ذلك وبعده هي رواية لا تخشى لومة في نقد الذات وتعريتها، مما بات- ربما- هو الضرورة القصوى لهذا الذي سنطوي سنته الثالثة في سوريا عما قريب.